تداولية الخطاب الإصلاحي عند أحمد سحنون
دراسة في أفعال اللُّغــة والحِّجــاج

نميسي آمال : طالبة الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة باجي مختار- عنابة

مقدمة:

مثلتَ القدرة الإصلاحية المتجّسدة في خطابات "أحمد سحنون" (1907-2003م) عاملاً من عوامل التَّصدي لكثير من التَّحديات التي تعرضَّت لها الأمة الجزائرية كأمّة عربية إسلامية في مسيرتها الطويلة (1929-1954). وقد خصّصت هذا البحث لتحليل أفكار" أحمد سحنون" كما جاءت من خلال إبداعاته الإصلاحية مبيّنة مواقفه الفكرية من بعض القضايا ذات الطابع الإصلاحي الاجتماعي، فالسياسي، فالقومي، فالإسلامي، حتى يتسنى للقارئ الكريم أن يقف على الاهتمامات التي كانت تستحوذ على الصحفي المصلح ، ومدى تصوره أو معالجته لهذه القضية أو تلك.

ولكون مشروع البحث في هذا النوع من الخطاب قد يطرح إشكالا يتعلق بموضوع الوصف اللغوي فيه، والذي ما فتئ يؤشر ضمنيا باختلافات حول تحديد المنهج الكفيل بمعالجته في إطاره الصحيح، رأيت أهمية إتباع المنهج التَّداولي، وبالضَّبط نظرية أفعال اللُّغة والحِّجاج، لتمعُّن وإدراك ما تحمله كتاباته من طاقات دلاليّة مختلفة.

ومن الدراسات التي المشابهة للموضوع : دراسة "محمد زغينة" والمعنونة بـ : "الأبعاد الموضوعية و الخصائص الفنية في سجينات شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1954- 1962م، وهي أقرب إلى الدراسات الإيديولوجية منها إلى اللغوية، بينما يسعى بحثي إلى مقاربة نصوص تراثية أصيلة بمنهج لغوي معاصر، لأن التقدم الواضح في تحليل الخطاب وبمناهج مختلفة لم يكن للخطاب الإصلاحي نصيب منه، فبقي محصوراً في تلك الدراسات الأيديولوجية التي تراكمت هنا وهناك بين التاريخ والأدب.

أولاً: نظرية الفعل اللّغوي والخطاب الإصلاحي:

يتحدّد الفعل اللغوي بتحديدات مختلفة تعود لاختلاف المرجعيات والمنطلقات التي ينطلق منها الدارسون، لتحديد مفهومه. ومع ذلك فإن المتفّق هو أنّ "...تكلم لغة ما، أو التحدث بها يعني تحقيق أفعال لغويّة"[1]، ومنها أفعال تصلح للحكم على أشياء (verdictives) أو اتخاذ قرار معين (Exécutives)، أو القيام بوعود (commessives) ،أو ترتبط بالسُّلوك الاجتماعي للمتكلم (behabitives)، أو توضيح وجهة نظرأو ذكرحجّة (expossitive) وهي التصنيفات التي أتى بها "جون لانكشو أوستين langshaw AustinJohn"(1911-1960). [2] ومن هنا سأحاول دراسة الأفعال اللُّغوية الواردة في خطابات "أحمد سحنون" من وجهة نظر تّداولية، وسيتم معالجة هذه النُّصوص كمعطيات كلاميّة مع الإشارة من حين لآخر إلى أفعال " جون لانكشو أوستين " باعتباره المؤسّس الأوّل لها.

أ/ المضمون القّضدي:

ظلّ الخطاب الإصلاحي عند "أحمد سحنون" منسجمًا مع جوهر العقيدة الإسلامية داعيًا إلى الكِتّاب والسُّنة وتفهمها، ورأى أنّ الدعوة إلى الكتاب و السُّنة هي نفسها الدّعوة إلى تحقيق كلمتي الشّهادة، فيقول: "**وهذا دواء من أدوية القلب، يتقدم به إلى مرضى القلوب أحد أطباء القلوب وهو يتركب من خمسة أشياء (...) و أول هذه الأشياء الخمسة قراءة القرآن، و أي دواء القلب كالقرآن الذي جعله الله شفاء للقلب...**". [3]

وقد نوّه "أحمد سحنون" بالدِّين الإسلامي لأن أوّل ما يتصل به الينابيع الروحيّة للفرد الجزائري، وبالتّالي سيكون مصدرًا من مصادر القوّة والتّماسك بين أفراد المجتمع ككل؛ "فليس ثمّة شك أن سيادة دين واحد، في جماعة معينة، يكون من عوامل تمسُّكها وقوتها، كما هو شأن الدِّين الإسلامي في أقطار العالم العربي" [4].

والحقيقة أنّ الدّعوة إلى القرآن الكريم لا تنفصل عنها دعوة من "أحمد سحنون" للتمسُّك بسنّة المصطفى صلى الله عليه و سلم، لأنّها المحجّة التي ترك عليها هذه الأمّة، لا تزيغ و لا تضل إن هي عضّت عليها بالنّواجذ، فيقول: "**ولكن ما هذا الخلق العظيم، الذي شهد الله به لنبيه الكريم ؟ إن هذا يظهر في الخلق الذي كان به نجاحه في دعوته أكثر من أي خلق آخر، فإن الله ليطلعنا على سر نجاح نبينا في دعوته لنجعله قدوتنا فيما نقوم به من دعوة إلى الله فيقول: (ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك)، ويدلنا على الطريق لبلوغ هذا المقام الأسمى إذ يقول (ادفع بالتي هي أحسن)...**". [5]

ففي أيضا حياته مثل: يطلعنا، لنجعله، نقوم، كنت، يدلُّنا، لا نفضوا...الخ دعوة للتأسّي به صلى الله عليه وسلم والاقتداء بسنّته والعمل بها، لأنّها المرجع الإلهي المعصوم، التي

بها تحيّ النفوس العربيّة من سُباتها، والذلّة التي ضربت عليها من شدّة جهلها، بدستورها في هذه الحياة.

ب/ المضمون التّربوي:

أدرك "أحمد سحنون " دور التّربية و التعليم في دعوته الإصلاحية، وفي تحقيق أهدافه المتعلقة أساسًا بالعقيدة والفِكر، فركزّ على تعلُّم الثّقافة الإسلامية، وهذا ما نقف عليه في قوله:

شبـــــاب محمد نعم الشّباب
إذا نودوا لذكراه استجابـــوا
يميل بهم إليه صدى ملح
ويحدوهم إليه هوى عجـــاب
و يزجيهم إلى الذكرى وفاء
لصاحبها كما يزجى السحاب
أتوا يتطلعون إلى قطاف
من الآداب فيها يستطـــاب
لقد صدئت نفوس من أساها
وخير جلائها الأدب اللباب. [6]

فطموحه في أن تفضي الجزائر إلى ثقافة قويّة، جعله يدعو الشّباب العربي المسلم بواسطة حكميّاته مثل: نِعم، نودوا، استجابوا، يحدوهم، يزجيهم، أتوا، يتطلعون... الخ إلى تعلّم الأدب العربي، تمكينًا للغة العربية، وتثبيتًا للعقيدة الإسلامية الصّحيحة، كقول "محمد الجعايبي": " إن فهم الدّين ودقائقه، وما احتوى عليه من أمر ونهي ووعد ووعيد وتبشير وتحذير ووعظ وترغيب وتربية وتهذيب إلى غير ذلك يتوقّف كلّه على معرفة اللغة ومزاولتها وفهم أسرارها، وما انطوت عليه من المقاصد والأغراض جليلهـــا وحقيرها". [7]

وتشبثا بالتُّراث الذي خلفه السّلف الصّالح في الدّين، وبالتُّراث الفكري الجزائري في الثّقافة الوطنية، نحو ما قال "جمال الدين الأفغاني" :" لا جماعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عزة لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمي وتحيي أثار رجال تاريخها، فتعلم عملهم وتنسج على منوالهم، وهذا كله يتوقف على تعليم وطني بدايته الوطن، ووسطه الوطن، ونهايته الوطن". [8]

ج/_ المضمون الاجتماعي:

هناك مشكلة كبيرة جداً، وخطيرة جداً، عانت منها الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي وهي وجود أيدي عاملة جزائريّة، وخبرات غير جزائريّة أيضاً، وهي في مجموعها غير مخلصة للبلد الذي تعمل فيه، على ما نصّ عليه " أحمد سحنون ":**"فكم متهافت على الزعامة متهالك عليها وهو ليس من أهلها، وهو ليس من طرازها، ولكن الغرور، وعدم الاعتراف بالقصور قاده إلى ما لا تحمد عقباه، فقاد أمته إلى الحمام، وهو يقول : (إلى الأمام). وكم متطفل على التعليم، أفنى عمره على إفساد النشء الصالح، وتضليل الشباب الطامح فقلب الحقائق، وطمس المعالم (...) وكم مدع للطب، جلب الداء، وضاعف البلاء، وأهلك الحرث والنسل(...) إن تنسيق الأوضاع وترتيب الكفاءات، وإعطاء القوس باريها، وإسناد الأمر إلى أهله، أمور لابد منها لكل أمة تريد الحياة، ولا سيما هذه الأمّـــة الفتية، التي تقف اليوم على عتبـــة الحياة ".**[9]

وقد وُفّق المصلح في إيراد ألفاظ بمحمولات تعكس موقفه من أدعياء الخبرة الذين عبثوا ويعبثون في تلك البلاد ممّا يسبب أفدح الخسائر الاقتصادية والاجتماعية، والأخلاقية فيها.

وإلى هذا المدى يدفع " أحمد سحنون" الجزائريين إلى مزيد من الصّفاء في علاقاتهم الاجتماعية من غير انتظار لمكافأة ذلك بمردود مالي، كما يدعوهم إلى مراعاة مبدأ الكفاءة في العمل بناءً على الصدق والثّقة والقبول والتحفُّظ والالتزام، وهي الفضائل الاجتماعية التي تشكّل أساس الإيمان الدّيني، وتلعب، أيضاً، دوراً رئيسياً في أداء النّظام الاجتماعي.

د- المضمون السّياسي:

من الخطوة الأولى نلاحظ شروع "أحمد سحنون" في تهيّئة المناخ للجهاد؛ ذلك أنّ التعسف ضدّ أبناء شعبه، قد استقرّ في وعيه وتفكيره، بمختلف مظاهره وصيغه وألوانه، وهو الدّافع الذي جعله منطلقًا وبحدّة لتأجيج نار غضب الجزائريين واستفزازهم من أجل الوقوف في وجه فرنسا واسترداد وطنهم منها ولذا كان يردّد قوله [10] :

وقد جربت جندك فاطمئني
لفوزك في ميادين الكفاح
وعيدك سوف يعلن فاستعدي
لأعيـاد التحرر والفكـاك

فالشاعر وهو يبثُّ هذه الدّعوة، كان متفائلاً بانتصار الثورة، و لذا يحث على الثّبات والإقدام لأن المؤمن لا يخاف الموت، ولا يرهب الأعداء.

ثانيًا- آليات الحِجاج في الخطاب الإصلاحي:

يذهب "شارل بيرلمان Charls Prelman " إلى" أنّ الحِجاج بحث من أجل ترجيح خيار من الخيارات قائمة وممكنة بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائمًا ".[11]

أ- الأدلة الجاهزة و علاقتها بالإقناع:

من الأدلّة الجاهزة التي وظّفها " أحمد سحنون" لإقناع المتلقي بما يدعو إليه **الحِجاج بالتّناص** (intertextualité)، وغايته توضيح القاعدة، وتكثيف حضور الأفكار في الذهن.[12] ولعلّ **النص الدّيني** فيما يقدّم لنا من أمثلة حجاجيّة أهم مصدر لهذه الأشكال الحجاجيّة، لقوة سيطرته على القلوب و العقول و يشمل القرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف، ونعلم مكانة القرآن وأثره في الفكر العربي، وهو أعلى سلطة دينيّة على الإطلاق.

ولم يتوانى "أحمد سحنون" في عرض آيّ القرآن التي عزّز بها أفكاره وجلّ براهينه فلا تكاد تخلو مقالاته منها، ونذكر على سبيل المثال ما ورد من نصوصها في قوله: " **وأول هذه الأشياء الخمسة قراءة القرآن بتدبر، وأي دواء القلب كالقرآن الذي جعله الله شفاء للقلب، إذ يقول {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين}** ".[13]

وقد اقتبس نص الآية الكريمة **{ونُنزّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ ولا يزيدُ الظّالمين إلا خسارًا}** "[14]، و فيها يخبر الله تعالى عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .[15]

وقد استخدم " سحنون " معنى هذه الآيّة ليثبت من خلالها مدى صلاحيّة القرآن الكريم في معالجة أمراض وآفات الأمّة الإسلاميّة، فكانت هذه الآية شاهدًا مقنعًا بما حملته من دلالة على مقدرة القرآن الكريم؛ وبالتّالي أوامر الله عزّ وجل في ضبط الموازين بين الناس، حتى يصبح كلّ حق في يد صاحبه، وهي العدالة التي يصبو إليها المسلمين في زمن استبدادي لم يعرف للعدالة فيه طريق وبالرّغم من أنّ **الحديث النّبوي الشريف** من النّاحية الحِجاجية يأتي بعد القرآن مباشرةً عند الفقهاء المسلمين، فإنّنا في الدّراسات الحِجاجيّة العربية خاصةً المناظرات والمجادلات بصفة عامة نجد نقصًا يسترعي التساؤل عن السّبب في هذا الغياب رغم الوَزن الدّيني، فنقول :" إنّ الحديث النبوّي كسلطة دينية لا يتمتّع بنفس الوزن الحِجاجي للقرآن، و ذلك لأسباب تاريخية ترتبط بالصراعات العرقية المذهبية في القرون الأولى للإسلام ونشوء أزمة انتحال الأحاديث، حيث ظهرت فئة خبيثة تضع بعض الأحاديث وتنسبها للرسول

صلى الله عليه و سلم، والخلاف حول صحة الأحاديث، يتسبّب في العزوف عنها، لأنه يمكن الاعتراض عنه وعلى سلطته بواسطة إثارة الشّك في صحته ".[16]

ومع ذلك نجد "أحمد سحنون" يورد عددًا من الأحاديث باعتبارها عاملاً مساعدًا على التّعزيز و التّبرير مثل: " **فأين الزوج الذي يقوم الليل في زمن قل فيه المحافظون على أداء الفريضة في وقتها، فكيف بقيام الليل الذي لا يتعرض الشيطان لشيء كما يتعرض له؟ أخرج البخاري و مسلم عن أبي هريرة (ص) أن رسول الله (ص) قال : يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد فان استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة فان توضأ انحلت عقدة، فان صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطا طيب النفس و إلا أصبح خبيث النفس كسلان** ".[17]

فأحمد سحنون في هذا الجزء من المقال يحاول أن يقنع المتلقين بضرورة إحياء اللّيل بضروب من الطاعاتِ والقربات، من صلاةٍ وتسبيح ودعاء واستغفار، وقد استعان بحديث للرسول عليه الصلاة والسلام كحجّة لها قيمتها في نفوس المتلقين كمسلمين.

في نفس المرتبة نجد **الشّعر**، هو ليس سلطة دينيّة، و لكنه يملك قيمة حجاجيّة، وهذا لمكانته عند العرب، فلماذا استخدم "أحمد سحنون" الشّعر؟

في مسألة : الكفاءة ودورها في بناء المجتمع يقوم الشّعر مقام المبرّر، أو المعلّل، فكان بيت "أحمد شوقي" شاهدًا على قول "أحمد سحنون" :"**وكم متطفل على التعليم، أفنى عمره في إفساد النشء الصالح، وتضليل الشّباب الطامح فقلب الحقائق، وطمس المعالم ، كما يقول شوقي :**

وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة
جاءت على يده البصائر حولا"[18]

يقول "محي الدين أبو هلالة": "إنّ الإحساس فطرة في الإنسان وتحريك هذا الإحساس مدخل إلى عمقه النفسي والفطري، ويتمّ التّحريك بطرق متعدّدة منها تقديم الحقائق والمعاني والقيّم "[19]، ولاشك في أنّ الجزائريين وباعتبارهم الطّرف الثّاني للخطاب كان لهم الدّور في توجيه "أحمد سحنون" أثناء اختيار هذا البيت الشعري المُستنبط من الثّقافة العّامة، وذلك بحضورهم العّيني أو الذّهني.

ب -الأدوات اللغويّة الاقناعية : في هذا المضمار، يرى التّداوليون أنّ الطّاقة الحِجاجية مسجّلة في أبنية اللُّغة وهي مكوّن من مكوناتها.

ويعدّ (**الوصل السّببي**) على العموم من أقدر العلاقات الحِجاجية، ربطًا بين أجزاء الكلام، لما له من إمكانيّة بالغة على الإقناع، والتأثير في المتلقين، ويمكن أن نمثّل له

بالعلاقة السببيّة، و نذهب إلى ما ذهبت إليه "سامية الدريدي" من أنّ "العلاقة السببيّة علاقة شبه منطقيّة، تجعل النّص يحاكي نصوصًا منطقية في ترابط أجزائها، وتناسق أفكارها ويجعل الحجّة شبه منطقيّة؛ لأن قاعدتها أو خلفيتها المؤسسة لطاقتها الاقناعية مستمدّة من عالم المنطق، وأدواته" [20]. ويمكننا الحديث عن التّتابع السّببي في قول "أحمد سحنون" [21]:

والسجن و النفي زاد في بليتنا
وكل شيء يسلينا فقدناه
لولا وجود كرام من أجبتنا
قد خففوا ما نعاني من بلاياه
لضاق كل أخ صبر بكربته
وكانت الموت أدنى ما رجوناه

وفي مثل هذا المقطع نستطيع أن نبرز تارةً السّبب وطورًا النّتيجة، فعلى سبيل المثال تكون المودّة بين الأفراد في معتقلات فرنسا هي السّبب في نتيجة حتميّة متوقّعة في تخفيف البلاء بين جدران السّجون، فيقنع المتلقي بكون السّجناء في سجون ومعتقلات فرنسا كانوا مجتمعًا ساميًا بأخلاقه، وعاداته، وتقاليده؛ فكانوا بذلك مضرب المثل في التّضحية والوئام، والإيثار، لأنهم كانوا مؤمنين بضريبة الحريّة التي لا يدفعها إلاّ أولئك الرجال الأشداء، وأصحاب الهمم الأقوياء.

ويعدّ أسلوب (**الشّرط**) من أقدر الأساليب على الإقناع، وذلك بما يحدثه من تلازم بين الحجّة والنّتيجة، باعتبار أنّ الشّرط دائما يقتضي دائمًا الجواب، والعكس صحيح، وهذا ما ذهب إليه " "ابن جني " في قوله: " وذلك أن حقيقة الشّرط، وجوابه أن يكون الثاني مسببًا عن الأول نحو قولك (إن زرتني أكرمتك)، فالإكرام مسبب عن الزيارة". [22] ولذا عمد "أحمد سحنون" إلى توظيف هذه العلاقة في قوله [23]:

فيا ابن العلا لم تمت إذ نأيت
ولبيت داعي الحمى حين ناد
وأوراس لم تبك لما مضيت
ولا لبست إذا نأيت الحدادا

فالشّاعر في هذا الجزء من الخطاب يعقد بالشّرط علاقة اقتضاء بين سبب و نتيجة بحيث يتمثّل السّبب في إتباع ما اتبعته الأمّة الأولى لكي تصلح الأمّة الثّانية؛ فهذه الجملة المبنيّة على الاقتضاء تغدو علاقة سببيّة لتشكّل حجّة، و قد مكّنه هذا التّركيب الشّرطي من أن يصدر حكمًا يتعرّف من خلاله المتلقي على سرّ الشهادة، وهو المفهوم الإسلامي الذي حوّل

أرض الجزائر إلى أرض الشهداء، وبالتّالي يلجأ إليه الوطنيُّون لتحقيق سيادتهم وسيادة أوطانهم.

ج_ الروابط الحِّجاجيةالاقناعية :

لما كانت للغة وظيفة حجاجيَّة، وجدت مؤشرات خاصَّة للحِّجاج ،اهتم بها كل من "أوزفالدديكرو oswald Ducrot" (1896- 1982م) و"جانكلود أنسكومبر AnscombrJean Claude"، و أكدَّا على قيمتها الاقناعية ، كما ميزَّا بين نوعين من المكونات اللغويَّة التي تحقق الوظيفة الحجاجيّة، فالنوع الأوّل يتمثّل في (الروابط الحجاجيّة) أي ما يربط بين الأقوال من روابط نحويّة، مثل أدوات الاستئناف (الواو ،الفاء لكن ، إذا ...الخ)، وهي تصل بين وحدتين لغويتين أو أكثر. و أمّا النّوع الثاني فهو ما يكون داخل القول الواحد من عناصر تدخل على الإسناد مثل: الحصر والنفي أو مكونات معجميَّة تحيل في الغالب إحالة غير مباشرة، مثل: منذ الظرفية وتقريباً وعلى الأقل، وتسمى بـ (العوامل الحِّجاجية). [24]

وهناك مثال تبدو فيها قيمة (**الواو**) بوضوح، و أهميتها في الكلام، و في اللُّغة بصفة عامة، وهذا في قول "أحمد سحنون" [25] :

فوق هذه البسيطة الغبراء
منتهى البؤس للورى والشقاء
كم أديب بها شقي وإن كا
ن بآدابه من السعداء
ومريض يئن من وهج السق
م ولا راحم من الرحماء
و فقير أشقى و أتعس مما
فوق هذا الأديم من تعساء
وجياع معذبون يذوقو
ن من الجوع شدة البأساء
وضعيف حقوقه غصبتها
قوة سلطت على الضعفاء

فنرى أن الشّاعر عمد الاستعانة بـ (الواو) حتى لا يقع في تكرار كلمات مثل (منتهى البؤس، كم) وهنا يتضّح أن مهمَّة الواو لا تقتصر فقط على الرَّبط بين الجمل، بل تعدَّتها إلى أداة لجعل الخطاب أكثر أناقة، كما يمكن اعتبار أنّ (الواو) أداة لتقرّ أنّ الأوضاع في الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي مزريَّة للغاية؛ إذ ساعدت على تضخيم الأحداث، التي تجعل

المتلقي دومًا في المتابعة والانتباه مما يسهّل عملية الإقناع، والاقتناع بضرورة تغيير خطّة المقاومة، وتعميم الثّورة على نطاق واسع . كما أنّ الفاء التي تحمل معنى السّببية، أسهمت أيضًا في تجسيد هذا النّمط من الوّصل الحِجاجي، و يظهر ذلك في قوله [26] :

إني لأرحم إخواني في الأدب
فكم يعانون من ضيق ومن وصب
لكل قوم نصيب في الحياة وما
نصيبهم أبدا فيها سوى النصب

فالواضح أنّ (الفاء) هنا سببيّة، فكان ما قبلها سببًا فيما بعدها، أي أنّ القول السّابق سببًا في القول اللاّحق، فالسّبب في تعاطف الشّاعر و شعوره بالرّحمة تجاه الأدباء مثله هو أنّ كُتّاب الأدب في الجزائر قد واجهوا كلّ صنوف المعارضة والتّهميش حتى لا يصل صوتهم إلى ساحات الوّغى.

د- الضّوابط الحِجاجية:

في هذا المنحى من البّحث سنحاول تسليط الضّوء على سبل نجاح العملية التواصليّة في الخطاب الإصلاحي بالتطرّق إلى مختلف المسلّمات الخطابية، من حيث أنّ السّياق يؤثّر في التّعبيرات اللغوية من وجهين: أوّلهما من حيث إحداث الكلام؛ وهو أمر يتعلّق بالمخاطِب والآخر من حيث تفسير الكلام؛ وهو أمر يتعلّق بالمخاطَب. [27]

ويمكن تجسيد مظاهر تأثير السّياق في إحداث الكّلام، من خلال أربعة قوانين :

1- قانون الإفادة:

يتوقّف الكلام على مدى استفادة المتلقي من كلام المتكلّم ، لذا فإنّ قانون الإفادة يجعل القول مفيدًا بغضّ النّظر عن بعده الإخباري الوّاسع ، أو الضّيّق، ويقول "ويلسون" حول هذا القانون "إنّنا نعترف بأن كلّ الأحكام تنضوي تحت مسلمة الإفادة التي هي أكثر دقّة وصحّة من الأحكام الأخرى ". [28]

و يتمحوّر قانون الإفادة في الخطاب الإصلاحي في نحو قول "أحمد سحنون " [29] :

ولا شيء لعمر الحق يؤلمني
مثل النفاق ومثل الكذب في الرجل

إنّ ما نستنتجه من قوله هذا أنّه كلام إخباري من جهة، ومفيد من جهة أخرى؛ فالمتلقي يدرك جيدًا ما سلف أن ذكره "أحمد سحنون" في قولـــه:[30]

لا شيء فوق أديم الأرض يعجبني

كالصدق بين الورى في القول و العمل

إلاّ أنّ إعادة تكرار المعنى لا تخلو من إفادة لما تفتحه من مجال لاستنتاجات ذهنيّة عديدة كأن يسرع المتلقي في الاتعاظ و الالتزام بالصّدق في حياته اليوميّة و المهنيّة، أو أن يحذر تقلبات الدّهر، ...الخ.

2- قانون الصّدق:

من الطبيعي أنّ للإنسان قدرة خارقة على استعمال الكذب في كلامه، وقد يكون بارعًا في ذلك أحيانًا، لذا يذهب بعض الباحثين إلى "أنّ الخطاب السويّ لا يبنى أساسًا على الصّدق [31].

وهنا نضرب قولاً لأحمد سحنون [32] :

شباب محمد نعـم الشباب

إذا نودوا لذكراه استجابوا

* * *

وأنتُم خير من خَاضُوا لضاها

فكيف يروعُكم هذا الذُبـاب

إنّنا من خلال هذا المثال، لا ندّعي أنّ المصلح كاذب، ولكننا نلمس في كلامه نوعًا من المبالغة والمجاملة، فليس من سداد الرأي أن يحكم على كل شّباب محمد صلى الله عليه و سلم بالحزم و الجّد، أي أنّه لا يعبّر فعلاً عمّا في داخله، ولكن مغالطته هنا كانت بدافع التّحفيز، والتّشجيع، وشحذ الهّمم، لذا يستحسن الكّذب في مثل هذه الأحوال التي يخترق فيها قانون الصّدق.

3- قانون الإخباريّة:

يعدّ الإخبار من الأهداف الأساسيّة لعمليّة التّواصل الكلامي، ويعرف قانون الإخبارية بأنّه:" الشّرط الذي يخضع له الكلام، و الذي هدفه إخبار السّامع، و لا يمكن أن يتمّ ذلك إلاّ إذا كان هذا الأخيـر يجهل ما يشار إليه ". [33] مثـل قول "أحمـد سحنـون " : [34]

إني لأرحم إخواني في الأدب

فكم يعانون من ضيق ومن وصب

لكل قوم نصيب في الحياة وما

نصيبهم أبدا فيها سوى النصب
أي امرئ شاعر لم ينفطر ألمًا
وأي ذي أدب في النّاس لم يصَب
كأن ذنب الفَتى آدابه وعلى
قدر العُقول تُصاب النّاس بالنُوب

والملاحظ أنّ الإخبار هنا جاء في صورة تقرير متضمّن لمعنى النّصيحة، كما نرى أنّ الشاعر أطال بعض الشّيء في تعميق حالة الهوان التي فرضتها فرنسا على الأدباء الجزائريين وذلك حتى يربطَ ذهن المتلقي الشّارد، ويلفتَ انتباهه.

4_ قانون الشُمولية:

يحدّده :" أوزفالدديكرو " بقوله: " يجب على المتكلّم أن يعطي المعلومات اللاّزمة التي بحوزته عن موضوع الخطاب، والتّي من شأنها أن تنفع المخاطب " [35] وقد نزعم أنّ هذا القانون يرتبط جذريًا بقانون الإخباريّة؛ لأن الشُموليّة تكون عند الإخبار، إذ تفيد المتلقي شيئًا لا يعلمه، وتتجلّى هذه الشُمولية في قول " أحمد سحنون" [36]:

فوق هذه البسيطة الغبراء
منتهى البؤس للورى والشقاء
كم أديب بها شقي وإن كا
ن بآدابه من السعداء
ومريض يئن من وهج السقـ
م ولا راحم من الرحماء
وفقير أشقى وأتعس مما
فوق هذا الأديم من تعساء
وجياع معذبون يذوقو
ن من الجوع شدة البأساء
وضعيف حقوقه غصبتها
قوة سلطت على الضعفاء

من خلال هذا القول نلحظ أنّ الشاعر قد ذكر كلّ ما يجب ذكره عن التعسّف الفرنسي، بمختلف صيغه وألوانه على أرض الجزائر، فلم يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ وأحصاها، وهذا لسدّ الفراغ المعرفي لدى المتلقي، وإحراز المنفعة بإقناعه، فذكر معاناة

الأديب، ومعاناة المرضى، ومعاناة الجياع والضعفاء، وغيرها من المواضيع التي تهمّ المتلقين على كثرة عددهم واختلاف مشاغلهم .

خلاصة :

لقد ترجم الخطاب الإصلاحي عند " أحمد سحنون "التوجُّه الدّيني والمعرفي والأخلاقي الذي تتبناه جمعية العلماء المسلمين الجزائري ينفي مجال دعوتها إلى العقيدة الإسلامية الصحيحة ومحاربتها البدع والخرافات وعملها على تربية الناس كلهم على حبال خير والصلاح والتقوى. ولا أحد ينكر مدى مساهمة "أحمد سحنون" بخطاباته في حفظ هويّة الشعب الجزائري و الدفع به لنيل الاستقلال، فمجرد استقراء ما حملته رسائله الإصلاحية من أفكار في سياق الظروف الاحتلالية الصعبة و الموارد الشحيحة وضراوة الخصم، تجعل أعماله صرحًا كبيرًا من التّضحيات والإرادة النافذة، يندر وجودها وتكرارها في العالم المعاصر على الأقل على المستوى العربي الإسلامي.

إنّ منهج "أحمد سحنون" في الحركة الاصلاحية يقوم على دعامة منطقية لا تكتفي بإنتاج الأفكار، وإنّما ترصدها بالتوجيه المنظم لمهمتها الاجتماعية، وهذه المنظومة هي ما يسميها بعض المفكرين بالجهاز، وهذا الجهاز عندما يتحرك يحدّد مجرى التاريخ نحوالهدف المنشود ضف إلى ذلك أنّ تعويل خطابه على الثورة الثقافية سبيلا إلى تحقيق النهضة، جعله أقرب ما يكون الى الفكر الديمقراطي .

إنّ استعمال الأفعال اللّغوية غير المباشرة كان بصورة عامة، وذلك أخذًا بعين الاعتبار المواقف التواصلية التي تفرض أفعالاً متضمنة في القول تستمد قوتها من السّيـاق الذي وردت فيه.

ولم تقف كفاءة "أحمد سحنون" عند حدود إسقاط الدّيني على الدنيوي، عن طريق اقتباس الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، بل تعدّت ذلك إلى جعل الأدوات اللغويّة و قوانين الخطاب تتخطّى حدودها الابلاغية البسيطة أو الإنشائية الجمالية فتبلغ حدودًا اقناعية لا غاية لأحمد سحنون فيها إلاّ حملاً للمتلقين على تبنّي وجهة نظره المتعلقة بضرورة تبني سلوك الإسلام الصحيح أولاً، والمشاركة العامة لكل أبناء الأمة في الحرب ثانيًا .

الهوامش:

1 - نواري مسعود أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء، بيت الحكمة الجزائر، ط1، 2009، ص 26-27.

2- عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النّظرية التداولية، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2003، ص159، وللاستزادة ينظر : محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، (د ط) ، 2002 ، ص70.

3- أحمد سحنون: دواء القلب، البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين السنة الثامنة من السلسلة الثانية، 1955- 1956، العدد 334، ج8 ،دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 2006، ص 130.

4 - ينظر: محمد زغينة، الأبعاد الموضوعية و الخصائص الفنية في سجينات شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، 1954- 1962، نوميديا للطباعة النشر والتوزيع، قسنطينة/ الجزائر، (دط)، 2005 ، ص 53.

5- أحمد سحنون: مجد يجب أن يحتذى، البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، السنة الثامنة من السلسلة الثانية، 1955- 1956، العدد 324، ج دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2006، ص 62.

6 - أحمد سحنون، شباب محمد، البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،السنة الثانية من السلسلة الجديدة، 1948، العدد 40 ، ج1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 ، 2006، ص359.

7 - جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، 1830- 1944، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، دار هومة، الجزائر، (د ط)، (د ت)، ص245.

8 - عبد الكريم بو الصفصاف، جمعية العلماء و دورها في تطوير الحركة الوطنية الجزائرية، -د-، دار البعث للطباعة و النشر و التوزيع، قسنطينة -الجزائر، ط1 ، 1981، ص 150و151.

9- أحمد سحنون: الكفاءة، البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، السنة الثامنة من السلسلة الثانية، 1955- 1956، العدد 327، ج8، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2006، ص94.

10 - أحمد سحنون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 199 ، ص104

11 –… il s'agissait notamment de conférer une base rationnelle à la gestion des conflits, ou plus précisément, grâce à la médiation rhétorique, d'éviter que les conflits ne dégénèrent en violence physique.). Marie-Anne Paveau et Georges –Élia Sarfati, les grandes théories de la

linguistique, de la grammaire Comparée à la de Pragmatique, Armand Colin, 2003, p. 181.

12 - صابر حباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، (دط) 2008، ص 122.

13 - أحمد سحنون : دواء القلب، جريدة البصائر، العدد 334، ج8 ، ص130.

14- القرآن الكريم، سورة سبحان، الآية 82.

15- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، تخريج: محمود بن الجميل، ج3، دار الإمام مالك، الجزائر، ط 1، 2006 ، ص 89.

16- حياة أحمد السيد، بنية الخطاب الحجاجي في مدونة الهوامل والشوامل للتوحيدي ومسكويه، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، 2006 / 2007 ص222.

17 - أحمد سحنون : دواء القلب، جريدة البصائر، مصدر سابق ، ص130.

18- أحمد سحنون: الكفاءة ، جريدة البصائر، مصدر سابق، ص94.

19 - يوسف محي الدين أبو هلالة، فن الخطابة، دار الضياء للنشر والتوزيع ،عمان، ط1، 2002 ص58.

20 - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، عالم الكتب الحديث، الأردن ،ط1 ،2008 ، ص327.

21 - محمد زغينة، الأبعاد الموضوعية والخصائص الفنية في سجينات شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،مرجع سابق ،ص44.

22 - ابن جني، الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار، ج3 ، دار الهدى للطباعة والنشر، لبنان، (دط) ، (دت) ، ص175.

23 - أحمد سحنون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1997 ، ص96.

24-Jacques moeschler et Anne Redoul dictionnaire encyclopédie de pragmatique, édition Levin,1994, p282.

25-أحمد سحنون، الإنسان بين تيارات الشقاء، مجموعة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، السلسة الأولى،1935-1937، العدد 20، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة/ الجزائر،ص163.

26- أحمد سحنون، حرفة الأدب، مجموعة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، السلسلة الأولى، 1935-1937،العدد 39، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة/ الجزائر ، ص 315 .

27 - محمد يونس علي، المعنى و ظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، ليبيا، ط2، 2007 ، ص 160.

28 - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر ، ط1، 2003، ص 103.

29 -أحمد سحنون، الصدق ، مجموعة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، السلسلة الأولى 1935- 1937، العدد 42 ، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، ،ص 337.

30 - المصدر نفسه ، ص337

31 - عمر بلخير ، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية مرجع سابق ص 106.

32 - أحمد سحنون ، شباب محمد ، مصدر سابق ، ص 359.

33 - عمر بلخير تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية مرجع سابق ، ص 109.

34 - أحمد سحنون، حرفة الأدب، مصدر سابق، ص315.

35 - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية مرجع سابق، ص 110 .

36 - أحمد سحنون، الإنسان بين تيارات الشقاء، مصدر سابق، ص136.